حول ديوان سميح القاسم « بانتظار طائر الرعد »

أعادوا لنا الأمل بالكلمة !

بقلم ياسين رفاعية

كان من أشد هموم شعراء الارض المحتلة ، قبل حرب حزيران ، الاهمال المقصود او غير المقصود الذي جوبهوا به من قبل اجهزة الاعلام العربية ، في الوقت الذي كانت السلطات الصهيونية تحاول ان تظهر ، امام الرأي العام العالمي المثقف ، على انها واحة الحرية والديموقراطية في منطقة الشرق الاوسط . وليس أدل على ذلك من سماحها لشعراء عرب ، ما زالوا في وطنهم فلسطين ، بنشر شعرهم في الصحف والمجلات والكتب .

وقد ارادت هذه السلطات ان تصطاد عصفورين بحجر واحد : هما محاولة اقناع هؤلاء الشعراء انهم في وضع افضل بكثير من زملائهم في بعض الاقطار العربية ، ثم المتاجرة بهذه المعاملة على الصعيد العالمي بتصوير العرب وقد ارتضوا بوجود اسرائيل كدولة واعتبار ان لهم صوتا فيها .

ولكن سرعان ما انكشفت هذه اللعبة عندما تسربت الى العالم الخارجي انباء اضطهاد السكان العرب بالجملة ، ومحاولة ابادتهم نهائيا ، وجعلهم في وضع من التمييز العنصري يكاد يشبه وضع الزنوج في الولايات المتحدة الامريكية وبعض انحاء العالم .

في هذا الجو المحموم نشأ جيل جديد من الشعراء العرب اثبت بما لا يقبل الشك ان العنصر العربي لا يمكن بحال من الاحوال ان يندمج في العنصر الصهيوني الذي يعتبر نفسه متميزا، جيل كان تجاوبه مع احداث الوطن العربي ، لا تجاوبه مع الاحداث والتغييرات داخل الارض المحتلة ، هو طابعه المميز .. فقد ثبت ان هذا الجيل ظل مرتبطا بفلسطين كأرض عربية خالصة ، وببقية أجزاء الوطن العربي الكبير ومشاكله واوضاعه وقضاياه ارتباط وجود ومصير . وعلى هذا الاساس ناضل ضد اسرائيل ككيان . وناضل ضد اسرائيل كدولة عنصرية فاشية مغتصبة لارض ليست ارضها . وكان هذا النضال على تفاوت في المستويات. الا ان هموم هذا الجيل الشعري كانت نابعة من معين واحد: انه فلسطيني عربي ، وان هناك جيشا من العدو يحتل وطنه على أبشع صور الاحتلال الذي يحاول ان يجتث جذوره من اساسها ليصهره في بوتقة الصهيونية .

من هنا ، كانت تجربة هؤلاء الشعراء فريدة من نوعها ، ومختلفة كليا عن تجربة سائر شعراء الوطن العربي . وكان لا بد اخيرا ان تفرج اجهزة الاعلام العربية عن هذا التراث الشعري الرائع .. وتتركه ينطلق الى الجماهير العربية في كل مكان ليذكرها ان البقية الباقية من شعب فلسطين في الارض المحتلة ما زالت تؤمن بأرضها وبمستقبلها العربي الاصيل ، وانها تكافح ضد أشد القوى الاستعمارية قسوة ووحشية بالرصاص وبالاضراب وبالجوع والتشرد . وبالكلمة اخيرا التي هي بداية الرصاص وشعلته المتوهجة .

وبعد حرب حزيران ازدادت شعلة هذا الشعر توهجا ، وكانت سببا مباشرا لاتقاد حماس الجماهير العربية وجعلها تندفع لتأييد العمل الفدائي على كافة المستويات من التضحية ونكران الذات .

وقد برز من خلال ذلك شعراء كثيرون ، الا ان ثلاثة منهم ظلوا في دائرة الضوء وهم محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد . بيد ان اشدهم مأساة كان سميح القاسم بسبب انه احد يساريي الوطن المحتل، بقي مدة من الزمن جسما غريبا لم تتمثله بوتقة « اليسار الاسرائيلي » ان صح ان ثمة يسارا حقيقيا بهذا الوصف ، فكانت النتيجة ان الفى نفسه منبوذا من ذلك اليسار ، مجلوبا الى التحقيق ، معذبا متهما من السلطة . ومن ادعياء اليسار انفسهم ، بالدوران « في اطار النظرة التقدمية » ! وبأن حقده القومي قد حجب عنه « رؤيا الآفاق الرحبة امام شعب اسرائيل .. » (1) .

وبالفعل ، فان الحزب الشيوعي الاسرائيلي قد جابه هذه الروح القومية مجابهة قطعية ، وعلى اساس قومي مضاد ، وذلك بالبتر التام للجناح العربي من الحزب باعتباره ذا صبغة قومية غالبة .. لقد مر جيل تقريبا على هذه الاقلية داخل المعتقل الصهيوني .. وهي تبحث عن أيما وسيلة تصل كفاحها اليومي بالكفاح الاوسع للشعب العربي دون جدوى ، ودون أمل . وعلى عكس مثال الاندلس، الذي ربما كان الوحيد من نوعه في التاريخ العربي ، فان انسان هذه الاقلية ، لم يستطع ان يتبدل الى غيره ، انه هو نفسه العربي الفلسطيني ، انه مع يأسه الحاد من اي خلاص يأتيه من خارج الحدود . لا يتطلع رغم ذلك الا الى هذا الخلاص نفسه من خارج الحدود . وتلك هي الحلقة الفاسدة المستحيلة، التي تدور فيها الاقلية الفلسطينية في الوطن المحتل . في المعتقل « اسرائيل » .

وليس اصدق من هذا القول ، وليس اشد شمولا منه في الانطباق على حالة سميح القاسم وحده اكثر من غيره . واكثر مرارة وحدة . وتلك هي مأساته الاساسية .

ذلك ان سميح القاسم ظل في كل شعره . اكثر التزاما بنظرته القومية الى مأساة شعبه من الشعراء الآخرين .. وكان هذا اشد وضوحا ونقاء في مجموعته الجديدة « ويكون ان يأتي طائر الرعد » الذي نحن بصدده والذي صودر من مكتبات « اسرائيل » بعد أيام من ظهوره . وقد تجاوزت سلطات الاحتلال قانون المطبوعات عندها الذي يمنع مصادرة اية منشورة مهما كان نوعها الا بعد مضي عام على الاقل من نشرها وتوزيعها .

وقبل صدور هذه المجموعة ، كنت قد نقلت حوارا جرى بيني وبين الشاعر يوسف الخطيب تحدثنا فيه عن هذه النظرة بالذات ، وخلصنا الى القول : « ان اكثر شعراء الوطن المحتل خصبا في العطاء الشعري هما محمود درويش وسميح القاسم . الاول هو شاعر البعد « الوطني » من القضية الفلسطينية ، بينما الثاني هو شاعر البعد « القومي » من القضية ذاتها . ولعل هذا السبب هو الذي جعل محمود درويش في دائرة الضوء عندنا اكثر من غيره من شعراء الوطن المحتل ، لان موضوعه وهو « الوطن » قد امده بغنائية عالية ، عالمية ، بدا ازاءها القاسم في همومه « القومية » كأنه يابس الحنجرة احيانا ،

1 ـ مقدمة ديوان الوطن المحتل « يوسف الخطيب » .

او كأنه يريد ان يفكر اكثر مما يريد ان يقول شعرا .

والذي يبدو لنا الآن ، من قراءة الشاعرين جيدا ان كلا منهما قد استعار لنفسه شخصية « تيليماك » الاغريقي في جانب من جوانب نفسه المعذبة المضطربة ، فمحمود درويش هو تيليماك المتشبث حتى اسنانه بامه « بنيلوب » التي يجب أن تعني الوطن، اي فلسطين ، بينما سميح القاسم هو تيليماك الآخر ، المتسكع عند كل الموانيء في انتظار عودة ابيه « يوليسيز » الذي يجب ان يعني بدوره القوم ، اي الامة ، وسيلاحظ من يقرأ انتاج الشاعرين جيدا ان كلا منهما قد أقام بنيانه الشعري كاملا على هذا الاساس او ذاك » .

هذه الملاحظات ، كانت قبل صدور هذه المجموعة وكان هذا الشعور كان يعتمل في صدر سميح القاسم ايضا . وسيلحظ القارىء ان بياس حنجرته يكاد يكون مفقودا في قصائده الشعرية الجديدة ، وانه صار أشد غنائية وتوقا الى عودة « يوليسيز » الذي يعني به الانتصار العربي . ونظرة القاسم من هذه الناحية اكثر ايجابية من نظرة الدرويش . ذلك لان الام كثيرا ما تكون مستسلمة لقدرها راضية ، بينما يصارع الاب هذا القدر ويحاول التغلب عليه . ومهما كانت النتائج فان ثمة محاولة من خلال هذا الصراع بحثا عن النصر .. وبالتالي جرأة في مواجهة العدوان :

اي رب
سيبارك النابالم والنصل المزق لحم شعبي
منذا يبيعك صك غفران
ونابك في ذراعي
يا من تخاف من الشعاع
يا من يعز عليك
نبض الخصب في ارض الجياع
يا كلب صيد الكرش والفليون
يا سمسار ناطحة السحاب
يا حارس النفط المدلل
بين احضان الذئاب

هذه الغنائية المرة التي ينطلق فيها سميح القاسم على نحو جديد تشعرنا ان الطراوة قد عادت الى حنجرته . ذلك لان املا جديدا قد انبثق في اعماق الشعب الفلسطيني الواقع تحت الاحتلال والذي يمثله خير تمثيل في توقه القومي الاصيل . هذا الامل الوحيد الذي بناه الفلسطينيون انفسهم عندما تسلموا زمام المبادرة واسترجعوا قضيتهم بعد ان عزلوا عنها كل هذه الاعوام الطويلة . هذا الامل يتمثل في قول القاسم :

آه يا أمي
وواصلت الاغاني !!
طال ـ آه ـ طال يا أمي غنائي
كان مشحونا بنار الانبياء
كان أحيانا ،
واحيانا .. حزينا كالمساء !
كان ـ آه ـ كان يا أمي . غنائي
بعضه ضحل كوجه الصيف ،
والبعض عميق كالشتاء !
فلماذا تغدر الريح انفعالات الاغاني
في ثوان
وتذريها .. فقاعات هواء ؟!
نخلة الساحة
قالت لي .. مرارا مرارا
علمتني نخلة الساحة
يا أمي الحبيبة
ان أهز الآن اعماق العروبه
ان اهز الجذع
ان شئت ثمارا !!

مثل هذا الفناء الراعش بالامل ، يدلل على ارتباط القاسم المخلص الصادق بمصير أمته . انه يصور ادق تفاصيل الوجه الآخر لمشاعر المواطنين العرب في الارض المحتلة .

واذا عدنا الى قصيدة « اصوات من مدن بعيدة » التي اعتمد الشاعر فيها على الفولكلور العربي. فاقتطف منه مطلع اغنية «يا رايحين ع حلب حبي معاكم راح » نكتشف هذه الغنائية الشفافة التي صارت تميزه عن غيره ، اذ ضمنها مأساة العربي وهو يرزح تحت سيف الاحتلال الاسرائيلي :

يا رائحين الى حلب
معكم حبيبي راح
ليعيد خاتمة الغضب
في جثة السفاح
يا رائحين الى عدن
معكم حبيبي راح
ليعيد لي وجه الوطن
ونهاية الاشباح

الى ان يخاطب بني قومه قائلا :

يجيئون ليلا ، يجيئون
فاستيقظوا استيقظوا
واحرسوا القرية الخائفة
يجيئون ليلا
من الغرب .. في مسرب العاصفة
اظافرهم من بقايا السلاسل
واسنانهم من شظايا القنابل ..

ان هذا التصاعد الميلودرامي ، الذي يتقنه القاسم ايما اتقان ، يؤكد لنا ان بنيانه الشعري يعتمد اعتمادا كليا على التركيب السيمفوني ذي الحركات الموسيقية الكاملة ، وخاصة في هذه القصيدة ، التي يبدو فيها التماوج الموسيقي من عنف الحركة وصخبها الى حلمها الى نعومتها ، الى الانين الخافت . فمن صخب الطبول في المقطع السابق ، الى وتر الكمان الحزين في هذا المقطع :

في الوحل ، يا حبيبتي
في الشوك ، في الحفائر
مقطوعة الوريد ، يا حبيبتي
مقلوعة الاظافر !
ولم يزل جبينك المنارة
في عتمة الضمائر .

ثم يتصاعد اللحن من جديد . في مجموعة الآلات الموسيقية على نغم حزين وناعم :

قفوا جميعا .. جميعا استعيدوني
فقد خطفت .. وابواب الردى دوني
قفوا جميعا .. فرغم النصل ، في رئتي
لا انحل قلبي .. ولا جفت شرايبني
دمي عليكم . اذا ما مت مغتربا
اقول : ناديت .. لكن لم يلبوني

انه أسى الشاعر ان يموت مغتربا ووطنه محتل . فالاحتلال يجعل الانسان في غربة وخوف وهروب ورعب ورقابة دائمة .

ثم يعود اللحن في القصيدة منفردا على آلة واحدة :

وحدك الليلة للرقص .. ووحدي للهدوء
وحـدك الليلـة
غيبي في زحام الضوء والاعلام
حتى الفجر غيبي

ثم تأخذ الحركة في الخفوت رويدا رويدا ، وتتناعم الايدي علـى الاوتـار :

وحـدك الليـلة
من شارع عبديئيل (عبد الله)
في زفـة هورا
عبر مساحات نزار ومضر
آه . ساحات نزار ومضر
واغفري لي الصمت والقلب الكسيرا
انها ليلة ذكرى .. وعبر

ثم تصمت الحركة فجأة ، وتيبس الايدي علـى آلاتها ، ليجعلنا الشاعر كالمأخوذين في هذا الجو العبق الذي خلقه لنـا عبـر الصراخ والارق والحزن والسكينة والاستسلام . انها في الحق ، حالة الانسان العربي بالتفصيل لا في فلسطين وحدها بل في مطارح أخرى .

ومن التركيب السيمفوني الموسيقي ينتقل الشاعر الـى تركيب آخر . هو الحوار الداخلي بين جزئي الانسان ، وبعبارة ادق التركيب المسرحي في حوار مزدوج لانسان واحد . نلاحظ ذلك في العديد مـن قصائد المجموعة .. منها مثلا :

« جسدي ينمو على كل الجهات
فاشهدوني
ها أنا انفض اكفاني ، وآتي ! »
السجلات ، كل السجلات
يا سادتي النافهين .
زورت . زورت . زورت .
من سنين !
وانـا اتهم
وانـا انتقم
للجياد الحزينه
مـن تواريخكم
والصكوك الهجينه !
كان لي .. كان بيت على رابيه
كان من صخر هذي الجبال
كان من خشب السند كـان
كان .. يا ناس .. كان
واقعا رائعا كالخيال ..

ثم تأتي اللازمة ، « جسدي ينمو على كـل الجهات فاشهدوني ـ ها أنا انفض اكفاني وآتي » التي وضعها الشاعر ضمن قوسين ، وربما هي لشاعر آخر .. لكنه استخدمها هنا على نحو ترداد الكورس للازمة في المسرحيات الاغريقية وفي المسرحيات الحديثة التي تقلدها :

« جسدي ينمو على كل الجهات
فاشهدوني ..
ها أنا أنفض اكفاني ، وآتي ! »
اغسلوا الدمع عن وجهكم والغبار
يا فراخي الصغار
افتحوا نبعة السر
حلوا جميع الشباك
واستحموا هناك !
اصلحوا الباب والسلم
استرجعوا العنزه الشارده
هيئوا النورج

منـاقشات

ضاق نطاق العدد عن نشر رد بعث به « الراصد العراقي » على رد الاستاذ غالي شكري عليه .
وقد وصلنا هذا الرد متأخرا ، وسوف ننشره في العدد القادم ، وفيه يكشف « الراصد العراقي » عن هويته باسمه الصريح بعد ان وضعه غالي شكري موضع الشـك .

السكـة
الموقـد
المائـدة !

وقصيدة « البيت الاخير في القصيدة » نجد في الكلمات النادرة القليلة صورة حزينة وحادة للحالة التي يعيشها العرب هناك ، ولعلهـا أيضا نبوءة الشاعر بمصيره ومصير مجموعته :

صعدوا السلـم
اسمع وقع الخطوات المشبوهه
أبصر تحت معاطفهم
عنوان المنزل والفوهه
صعدوا السلـم
همسـوا
ثانيهم يتقدم
يعقف سبابته ، ينقر بابي
. . . . . .
. . . . . .
ويلك يا هذا .. عكرت الصمت
ويلك .. نفرت الصوره
عـن آخر بيت !

وهكذا حين قال آخر كلمة ، وضعوا الاصفاد في يديه وقادوه الى السجن . اما المجموعة فقد صادروها .

ولا نستطيع هنا ان نتناول كل قصائد المجموعة بالتحليل ، فقصائد سميح القاسم بريئة وصافية ليست بحاجة الى الدراسة والتحليل . هناك ثغرات ولا يمكن ان ينجو منها اي شاعر ، لكن يبقى سميح القاسم ألصق بالارض الفلسطينية وبشعب فلسطين . وشعره هنا ، هو شعـر التجربة المريرة ، انه تعبير صادق واصيل عن مأساة شعب برمته محاط بالاسلاك الشائكة والرصاص والسوط ، وبقر البطون وبسـر الاعنـاق وشعر من هذا النوع يحيا وجها لوجـه صرخـة شعب ضد الاحتلال الصهيوني ، يقارعه ويلتحم به كل لحظة ، كـل ثانية . شعر فدائـي ومناضل وملتزم . يخوض المعركة في اتون جحيمها لا يظل عليها من عل او بواسطة المنظار يلتحم فيها بالايدي ويقاوم مقاومة المستميت من اجل يوم النصر .

ولسوف يجد القارىء عبر رحلة هذه المجموعة ان سميح القاسم ورفاقه شعراء الارض المحتلة اعادوا لنا الامل بالكلمة مثلما أعاد لنـا الفدائيون الامل بالرصاص . (*)

ياسين رفاعية

(*) مقدمة ديوان « بانتظار طائر الرعد » الذي صدر هذا الاسبوع عن « دار الآداب » .